أمين مشرق : الأديب والشاعر المجهول

بقلم حارث طه الراوي

الشاعر العبقري المجهول الذي صان ماء جبينه ، وسقى دوحة شاعريته بدمع عينه وعبرات فؤاده ، هو أسمى وأرفع قدراً من الف أمير للشعر يغمس يراعه في قلوب غيره من الشعراء ثم يسامر ذوي الجاه والسلطان ليغمروه بالعطايا والصدقات .

والأديب العبقرى المجهول ، الذي يغترف أدبه من ينبوع الحياة ، من شعبه الحائر ومن شعوب الأرض الحائرة المتألمة المستطلعة الى مستقبل أفضل ، هو أسمى وأرفع قدراً من أديب ينثر ما ينظمه الاخرون ، ويزخرفه ، ثم يتملّق هذا ويجثو امام ذاك ، طمعاً في الحطام ، حطام الدنيا الزائل الذي كان في الماضي البعيد والقريب لطخة عارٍ في جبين الأدب العربي . إنه يتملّق سلم الشعوذات قاصداً الشهرة ، والشهره قد تكون في بعض الاحيان كالمومس من استرضاها كان دونها قدراً كما يقول ميخائيل نعيمة ...

فالشهرة ليست ضرورية للأديب ، بل قد تكون وبالاً عليه عندما تحيطه بهالة من التقديس ، ودونك ما فعلته الشهرة العريضة بكبار ادبائنا المعاصرين في إنتاجهم الرخيص ..

والمرحوم أمين مشرق كان شاعراً مجهولاً وكاتباً غير معروف الا لدى هواة الأدب المهجري ، ولم ينصفه أحد من أدباء العربية سوى الدكتور محمد مندور في كتابه النفيس « في الميزان الجديد » .

وقد طلبتُ من صديقه ميخائيل نعيمه عام ١٩٥٠ أن يزودني ببعض المعلومات عن حياة هذا الشاعر الفريد ، وإذا بمعلومات نعيمة ضئيلة أيضاً في هذا الموضوع فلقد كتب لي يقول : « المرحوم امين مشرق كان صديقي ولكني لا اعرف الكثير عن حياته ، الا انه هجر الى الولايات المتحدة اولاً ومنها الى الأكوادور . ثم عاد الى لبنان عام ١٩٣٢ حيث كانت الفرصة الأولى لتعارفنا . وتزوج في العام ذاته وعاد الى الأكوادور . وبعد عام او عامين قضى في حادث سيارة . أما آثاره الشعرية — على قلتها — فأكثرها من طراز ممتاز ... »

★

لم يخلّف المرحوم امين مشرق كتاباً نثرياً ولكن مقالاته التي نشرها في صحف المهجر « كالسائح » وغيرها تغني عن كتب كثيرة . وقد كانت مقالاته صرخات داوية في أذن الرجعية العمياء . فقد كان الأمين مجدّداً في الوقت الذي كان فيه التجديد كفراً لا يُغتفر للأديب ، وفي الفترة التي كانت فيها الافكار التقدمية مثاراً للسخرية والاشمئزاز ومطّ الشفاه !..

ولم يكن امين مشرق منجرفاً مع تيار التجديد ، لأنه لم يكن من الذين ينجرفون مع تيار النزعات الفكرية من غير تفكير ، ذلك انه لم يكن إمّعة شأن بعض المهرجين الذين لا يتورعون عن وضع سقط المتاع في آنية التجديد المزيّف . لأن النزعة التجددية كانت ممتزجة مع دمه ، بل كانت عواصف تزأر في أعماقه فيطلقها يراعُه ...

وحسبك أن تقرأ له بحثه الطويل « الداء العياء » المنشور في كتاب « ما وراء البحار — أو النبوغ العربي في العالم الجديد » لتوفيق الرافعي . فقد أوضح فيه الفقيد أدق المقاييس التي يجب أن يقاس بها الأدب الحي . وقد استهل بحثه بتأييده لميخائيل نعيمة في انتقاده اللاذع لدرّة من درر شاعر الأمراء المرحوم احمد شوقي . ثم طفق يندد بالمبالغة المقيتة التي طغت على أدبنا القديم وسرت عدواها الى أدبنا الحاضر قائلاً :

« لو سمعنا أحد الشعراء يرثي اسكافاً مات بين النعال والاحذية قائلاً ان الفضل مات بموته والعلم هد ركنه والأدب امسى يتيما ، ويتعجب كيف ان النجوم لم تنطق حداداً والدهر لم يقف جائراً . أو لو قرأنا شعراً لآخر يمدح فيه اذور باشا وحصانه الأدهم بقوله : ان صهيله «في قلب اوربا له ترديد» . أو لو سمعنا عاشقاً ينشد :

أمر بالحجر القاسي فألثمه ... لأن قلبك قاس يشبه الحجرا

وسألنا الثلاثة لماذا كان هذا الغلو ، لضحكوا منا ولا شك مشفقين لجهلنا ثم اخرج اولهم من تحت ابطه كتاب علم المعاني والبيان . وأظهر الثاني ديوان المتنبي أو ابن الفارض . وفتح الثالث كتاب نهج البلاغة ، وقدموها الينا وقد لاحت ابتسامة الانتصار على ثغورهم ولسان حالهم يقول : تعلموا هنا قواعد البلاغة وحدود البيان ثم لا تحتاجون الى سؤال .. »

ثم يثور امين مشرق على هؤلاء ثورة مشفق ساخر قائلاً :

« هؤلاء القوم ويا للاسف معذورون بعض العذر . كيف لا وكل ما تعلموه منذ ان اصبحوا يتهاجون بالكلمات يبتدىء بـ « حدثنا سهيل بن عباد » وينتهي بشرح المعلقات السبع ؟ أيلام التلميذ على حفظه مسائله ؟ أو ليس طبيعياً ان تنمو النبتة معوجة اذا ربطناها بحائط معوج ؟ وهل الذنب ذنب الارض

انها لا تعطي قمحاً اذا زرعناها قطرباً ؟... »

ولعل المرحوم امين مشرق هو اول من فنّد القول العربي المشهور « إن أعذب الشعر اكذبه » تفنيداً منطقياً جميلاً ، فلقد قال في هذا المقال : « الشعر والنثر كلام . ونتيجة الكلام التفاهم . ونتيجة التفاهم التأثير ، وأبلغ تأثير في الكلام الصادق » . ثم ضرب لنا امثلة عملية على مبلغ تأثير الكلام الصادق في النفس الانسانية اقتطف منها هذا المثال الرائع :

« شحاذان يقول اولهما : « انا جائع » ويسكت فتنحن عليه ونطعمه ، والثاني يتلو علينا موعظة يسوع على الجبل ، باكياً بدموع راحيل ، متوجعاً كتوجع الحنساء ، فنلوي عنه كارهين مشمئزين .. »

ولقد توهم الكثيرون من قدماء نقّاد الادب العربي ان الكذب شرط من شروط البلاغة . وقد كانت التضحية بالصدق في سبيل البهرجات البيانية والبهلوانيات الكتابية ، ليست مستساغة فحسب وإنما ضرورية للأثر الفكري الناجح بحسب تلك المقاييس البالية . وقد ندّد مشرق بهذه النظرة التقليدية الخاطئة بعنف قائلاً :

« ... فان الآداب الدينية تنهى عن الكذب . وان العقل السليم لا يقبله . وأنه لا رفة فيه ، والرقة من خصائص الشعر ، وانه لا منطق يدعمه ، والمنطق ركن الشعر والنثر . وانه لا قبل له على النقد والتمحيص ، وكلاهما من أول اعمال الادب . وانه لا فلسفة فيه ، والفلسفة روح الآداب على الاطلاق . وانه يظهر الامور بغير حقيقتها ، وأقصى غايات الأدب الحقيقة . الكذب خداع — والأدب صدق . الكذب عجز — والأدب مقدرة . الكذب جبن — والأدب بسالة » .

لقد كان امين مشرق يصرخ مثل هذه الصرخات في الوقت الذي كان فيه المرحوم شوقي يدفن الفضيلة مع « سليمان اباظة » (باشا) أحد سراة مصر الكبار قائلاً في رثائه :

سارت جنازة كل فضل في الورى ... لما ركبت الآلة الحدباء ! !
وتيتم الايتام أول مرة ... ورمى الزمان بصرفه الفقراء !
والله ما مات الوزير وكتمو ... فوق التراب أعزة أحباء ! ! !

★

أما نظرة امين مشرق الى الحياة فقد كان يشوبها شيء من ظلام التشاؤم ، إلا ان تشاؤمه هذا كان قاصراً على نفثاته الوجدانية الذاتية لأنه كان متألماً في ديار الغربة . غير انه كان مؤمناً بادب الالتزام ، أدب التوجيه ، أدب الواقع . وحسبك ان تقرأ له مقاله الطويل « أردية الآباء » المنشور في كتاب « بلاغة العرب في القرن العشرين » فقد خاطب الجيل العربي الجديد قائلاً :

« امامنا عقبات كثيرة ، ولكنها ستذوب امام العزم الذي لا يذوب . وطريقنا طويلة فليكن صبرنا طويلاً طويلاً ، ولتكن همتنا شديدة . لا

صورة تذكارية يظهر فيها من اليمين الى اليسار ميخائيل نعيمة ، المرحوم امين مشرق ، المرحومة عقيلة المرحوم جبر ضومط ، فاضل الجمالي (رئيس وزراء العراق الحالي) . وقد التقطت لهم هذه الصورة في سوق الغرب بلبنان سنة ١٩٣٢ .

تلتفتوا الى خلف ولا تحاولوا اصلاح القديم فانه اصبح للموت ، بل اجتهدوا في اصلاح نفوسكم وفي تقوية ذواتكم لأستقبال الحياة — حياة الجديد — حياة القوة .. »

فلم يكن الامين من الرجعيين الذين لا يسعون الى تغيير الواقع المؤلم أو الذين لا يؤمنون بامكان تحطيم السلاسل التي تقيّد العالم العربي ، فهو القائل :

« .. من وراء الجثث المتدلية من حبال المشانق ، من وراء الاجساد الذائبة على نيران التوجع ، من وراء الشراذم المتبددة في جميع اقطار الارض لا تحمل راية ولا تعرف وطناً ، من وراء هذه الايام السوداء والليالي المخيفة المحشوة بالمهالك ؛ من وراء جميع ذلك ارى طلائع صبح ناصع البياض تبصبص في جبينه أسلاك من نور شمس ساطعة مبشرة باقتراب نهار ساطع .. » .

★

أما شعر المرحوم أمين مشرق فأكثره شعر ذاتي يصف فيه آلام نفسه وأشواقها ومطامحها ، ولكنه ليس كشعر بعض شعرائنا الذاتيين الأنانيين الذين يحومون حول ذواتهم كما تحوم الذبابة حول السراج ، فلا نفهم من طنينهم شيئاً . فشعره الذاتي واسع الأفق لأنه يعبر به في الواقع عن آلام نفس جريحة أبية و كأنه يعبر عن كل نفس جريحة أبية . اسمعه يخاطب نفسه في قصيدة « اتبعيني » :

إن رمتِ الغير يبطر ... راقصاً حول الذهب
يطأ الحق ويفخر ... بالمعالي والنسب .

فارمي

باسماً قد مزق الفقر ثيابي
ذهبي قلبي وأنسابي كتابي
أنصر الحق على العاتي المحابي
هازئاً بالظلم لا أخشى عطب
واتبعيني
نرتوِ يا نفس من مال الادب
ان شهدت الغير يبكي تحت اقدام الزمان
فاضحكي منه كضحكي انه نذل جبان
شاهديني
ثابتاً بالعزم في وجه الرزايا
وقلوب الناس قد طارت شظايا
وإذا ما نهشت جسمي المنايا
إن روحي حلقت فوق الزمان
فاتبعيني
نحن نحوي ، ليس يحوينا مكان !

وفي قصيدة « دموع الأمل » يصف شاعرنا موت حبيبته وصفاً دقيقاً مؤثراً بألفاظ سهلة تفيض عذوبة وتنضح صدقاً ؛ متنقلاً من قافية الى قافية كما تتنقل فراشة الربيع من زهرة الى زهرة؛ ساكباً في قوافيه موسيقاه الشجيّة الرنّة العميقة الأنّة:

اتاني الزمان على غفلة فأطفأ من عيشتي نورها
وماتت لأحيا الفتاة التي رأيت ولم أر لي غيرها
فكيف اكفكف من ادمعي وحزني يأكل في اضلعي

★

صغيرين كنا كفرخي حمام نعيش بظل الصبى الناظر
فنلعب آناً وآناً ننام وزندي على صدرها الطاهر
يلاعب شعراتها اصبعي وقلبي من سكره لا يعي

★

ويا ليلة بئس من ليلة يقطع قلبي تذكارها
أشدت عليها يد العلة وغابت من العين انوارها
حنوت على جسمها الموجع وناديت ربي فلم يسمع !..

والقصيدة طويلة وكل ابياتها تجنّح الخيال وتثير شتى التأملات في أعماق الروح . ولعل اروع قصيدة نظمها امين مشرق هي قصيدة « الكمنجة » بل لعلها أروع قصيدة قيلت في الكمنجة في الشعر العربي :

أنصت الليل وأشباح الدجى ويك ما هذا التلوي والانين
يا ابنة الاخشاب هل فيه حشا يتلوى تحت هزات النغم
هل ترى فيك فؤاد قد مشى فيه اشواق وآلام ودم
هل ترى فيك هيام أو شقاء أو سقام
هل ترى خانك خلان لئام ولذا تبكين عهد الخائنين

انني كلما قرأت هذا المقطع أحسستُ بأن الكمنجة كائن حي ، انسان مثلي تستعر فيه الآلام وتتدافع في اعماقه أمواج الأنين وتتزاحم في فكره مشاعر تثيرها خيانة الذئاب البشرية. وعلى أي حال فلنرافق الشاعر في تساؤله الذي لا يعرف النهاية واليقين :

يا ابنة الاخشاب هل شق الفضا عنك روحاً عبثت فيها الرياح
ام ترى تبكين عهداً قد مضى «بين تشبيب وشكوى ونواح»
هل غدا الوجد شرابا لك والوحل سرابا
هل ترى تبكين في الشيب شبابا غار في عمق الليالي والسنين

ثم يمضي الشاعر في تساؤله اللجوج فيسمو بتأملاته المجنحة عن هذا العالم :

يا ابنة الاخشاب هل هذا الحنين لربوع ما رأتها قط عين
أم ترى هذا سؤال تسألين عن حياة وخلود كيف اين ؟
بين ايمان وريبة بين آمال وخيبة
تارة يبدو لك العيش لعيبة تارة يبدو لك الشك يقين ...

ثم يكاد أن ينتهي التساؤل عندما يصل الشاعر الى مرحلة التقرير ، فيصف لنا حنين نفسه الى الديار الروحية النائية التي تتطلّع اليها روح الفنّان المعذّب على وجه الأرض :

ليس فيك مثل روحي نسمة أبداً ظمأى لدار قاصية
لا ولا قلب كقلبي شعلة في حشاها الف عين جارية
لا ولا بؤس كبؤسي لا ولا نفس كنفسي
دودة تمشي ملاكاً حين تمشي وتناجي الله من ماء وطين

ثم يصل الشاعر الى مرحلة ثانية من التقرير فيحسّ احساساً عميقاً بأن الكمنجة ما كانت لتنوح لولا ملامستها لصدره الزاخر بالأشجان ؛ فهو مصدر الحانها التي تشجي وتبكي :

يا ابنة الاخشاب ما انت سوى صوت روحي وصدى قلبي الطموح
في فؤادي ألف «رست ونوى» وكمنجات وأعواد تنوح
كلما لامست صدري فشجي اللحن يجري
منه في صدرك امواج كبحر مائج طوراً وطوراً مستكين

الا ان شاعرنا الذي أحسّ بأن الكمنجة منفذ تنطلق منه عواصف أحزانه ، ومنبر تذيع منه روحه مشاعره الغامضة الثائرة ؛ يعود الى نفسه وقد خفتت أنغام الكمنجة فيراها طافحة بالاحزان ، وما هذه الألحان التي سمعها الا قطرة من خضم ألمه فيخاطب الاوتار الشاكية قائلاً :

لا تخافي انما اعطيك الصدى انا في داخلي يبقى الالم
هوذا قلبي يضحي ابداً فدية عن قلبك الخالي الاصم
رددي منه الانينا واملأي الليل حنينا
واهزئي بالقلب ماذا ترهبنا مزقيه حبذا لو تفعلين ...
...

وبعد فهل من الانصاف أن يُنسى شاعر وناثر من قدْر أمين مشرق ؟ هذا الشاعر الذي عاش شريفاً وكان صادقاً ومبدعاً في كل ما نظم ونثر ، ومات شهيداً ، وها هو اليوم ينام تحت تراب الغربة القاسية ملفوفاً بأكفان النسيان . ولكني أرى على ضريحه بعين الروح اكليلاً من الغار وضعه « أبولو » الذي لا ينسى كل من يدخل معبده من المنشدين المخلصين ...

بغداد **حارث طه الراوي**